

التقرير
الاستراتيجي

النظام العربي والإقليمي: اللاعبون والاتجاهات في مرحلة إنتقالية



(2016-2015)

المركز الإستشاري للدراسات والتوثيق
the Consultative Center for Studies and Documentation



النظام العربي والإقليمي:
اللاعبون والاتجاهات في مرحلة إنتقالية

(2016-2015)

النظام العربي والإقليمي:
اللاعبون والاتجاهات في مرحلة إنتقالية
(2016-2015)



المركز الإستشاري للدراسات والتوثيق
the Consultative Center for Studies and Documentation



النظام العربي والإقليمي: اللا عبون والاتجاهات في مرحلة إنتقالية (2015-2016)

صادر عن: المركز الإستشاري للدراسات والتوثيق

هذا التقرير هو ثمرة جهود تضافرت في الكتابة والبحث والتحليل المعمق بإشراف المركز الاستشاري للدراسات والتوثيق، وقد أسهم في إثراء مادة التقرير بالأفكار والتحليلات القيمة نخبة من الكُتّاب والمفكرين العرب والأجانب. إن جميع الأبحاث والدراسات والآراء الواردة في هذا التقرير لا تُعبر إلا عن وجهة نظر كُتّابها.

المشرف العام: عبد الحليم فضل الله

مدير التحرير: حسام مطر

الإخراج والتنضيد: أحمد شقير

الطباعة: مطبعة الحرف العربي

التوزيع: لبنان والعالم العربي

تاريخ النشر: آب ٢٠١٧

الطبعة: الأولى.

القياس: 21x29

حقوق الطبع محفوظة للمركز

جميع حقوق النشر محفوظة للمركز. وبالتالي غير مسموح نسخ أي جزء من أجزاء التقرير أو اختزانه في أي نظام لاختزان المعلومات واسترجاعها، أو نقله بأية وسيلة سواء أكانت عادية أو إلكترونية أو شرائط ممغنطة أو ميكانيكية أو أقراص مدمجة، استنساخاً أو تسجيلاً أو غير ذلك إلا في حالات الاقتباس المحدودة بغرض الدراسة والاستفادة العلمية مع وجوب ذكر المصدر.

العنوان: بئر حسن - جادة الأسد - خلف الفانترزي وورلد - بناية الورود - الطابق الأول.

البريد الإلكتروني: dirasat@dirasat.net www.dirasat.net

P.o.Box: 24 /47 Baabda 10172010

هاتف: 01/836610

فاكس: 01/836611

خليوي: 03/833438

ثبت المحتويات

7 المقدّمة / عبد الحلیم فضل الله
11 المدخل / حسام مطر
19 جيوبوليتيك الأدوار الوازنة في غرب آسيا والعالم العربي جمال واكيم
31 مصر في سياق الفوضى الإقليمية/جمال واكيم
33 ماذا تعني عودة تركيا وإيران إلى حضن المشرق الإسلامي؟ سعد محيو
47 العراق وثمان الاستقرار الإقليمي المفقود/ياسر عبد الحسين
55 «العثمانية القديمة» ... تركيا في نظام إقليمي قيد التشكّل محمد عبدالقادر خليل
74 رؤية حزب الله للعلاقات العربية الايرانية/النائب محمد رعد
77 أفق الحرب والتسوية السياسية في اليمن فيصل جلول
89 المقاربة الإسرائيلية للتحوّلات الإقليمية في الشرق الأوسط أكرم عطاالله ويحيى أبو عودة
103 الانتفاضة الشعبية الفلسطينية: بداية مسار ثوري؟ منير شفيق
113 العمق الإفريقي ودوره في إعادة بناء النظام الإقليمي موديبو دانيون
123 بلدان المغرب العربي في مواجهة تداعيات الاضطرابات العربية جابر القفصي
148 الاتفاق النووي بين إيران والمجموعة الدولية/ حسن بهشتي بور

- 153 روسيا في غرب آسيا والعالم العربي: معبر نحو النظام الدولي
وسيم قلعية
- 166 روسيا وأميركا في المنطقة: «حدود التوافق والاختلاف» / يوست هلترمان
- 171 «مبادرة الحزام والطريق» أهمية الشرق الأوسط في الاستراتيجية الصينية الجديدة
رضوان جمول
- 181 صعود تنظيم داعش وانحداره مقارنة بديلة: تناسل الأطياف السلفية
خالد عايد
- 197 هل فشل الإسلام السياسي حقاً؟ / راشد الغنوشي
- 201 الإخوان المسلمون في مصر: زمن الأسئلة الصعبة
علي الرجال
- 217 المؤسسة الوهابية وهاجس تحولات العرش السعودي / المركز الاستشاري للدراسات والتوثيق
- 223 ملف التقرير / مساهمات إستشرافية حول النظام الإقليمي الناشئ
- 225 المقاومة والشراكة ضرورة الاستقلال والاستقرار
السيد إبراهيم أمين السيد
- 229 التحولات في الشرق الأوسط
عدنان منصور
- 235 مستقبل الشرق الأوسط: تفاؤل يجب أن يبقى ممزوجاً بالحدذر الشديد
جورج قرم
- 239 تحولات البيئة الإقليمية في غرب آسيا، شمال أفريقيا
ديغانغ صان
- 241 مستقبل النظام الإقليمي ودور القوى الإقليمية الرئيسية في إعادة بنائه / عبد الحليم فضل الله
- 247 في النظام الإقليمي في الشرق الأوسط: التحولات والإشارات والتنبيهات
عقيل سعيد محفوظ
- 251 العصر الروسي في الشرق الأوسط!
مصطفى اللباد
- 255 تحولات في الجغرافيا السياسية الإقليمية
قاسم عز الدين

صعود تنظيم داعش وانحداره مقارنة بديلة: تناسل الأطياف السلفية

خالد عايد

باحث أردني

المقدمة:

نشهد، أيضًا، الانحدار السريع للتنظيم بعد نقطة الذروة المذكورة. وينطبق مثل هذا الصعود والهبوط على حركات سلفية "جهادية" أخرى، كحركة طالبان الأفغانية. وقد بلغ الأمر في العقد الأول من القرن الواحد والعشرين بدراسات صادرة عن بعض مراكز الأبحاث، كمؤسسة كارنيجي مثلاً، ما يشبه التبشير بانتهاء السلفية "الجهادية"⁴. لكن... سرعان ما جاء ما هو أخبث من القاعدة وأدهى: ابنتها/ شقيقتها دولة داعش.

وفي خضم هذه العملية المستمرة من مدّ وجزر، ومن تناسل الأطياف السلفية «الجهادية»، تراجعت إلى الظل الإعلامي - أو كادت - الجماعة الإسلامية الأوسع انتشارًا في القرن العشرين، عينا بها جماعة الإخوان

بحلول حزيران/ يونيو 2014، كان تنظيم داعش («الدولة الإسلامية في العراق والشام») قد سيطر على مساحات واسعة من سورية والعراق، في تطوّر وُصف بـ«الصاعق» و«الساطع» و«الصارخ»¹، أو «المفاجيء والسريع»² أو «السريع شبه النيزكي»³، إلى آخر ما هناك من صفات. وفي صيف 2016، أي بعد عامين تقريبًا من صعود داعش، كان التنظيم قد خسر معظم تلك المساحات من الأراضي التي سيطر عليها في العراق وسورية في ذروة صعوده، في سلسلة من الهزائم العسكرية، وُصفت بـ«بداية النهاية».

لقد سبق أن شهدنا صعودًا سريعًا مماثلاً حققه تنظيم القاعدة في تسعينيات القرن الماضي، بلغ ذروته في هجمات 11 أيلول/ سبتمبر 2001. وسرعان ما بدأنا

1 - فواز جرجس، «داعش إلى أين؟ جهاديو ما بعد القاعدة»، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2016

2 - حسن أبو هنية ومحمد أبو رمان، «تنظيم الدولة الإسلامية: الأزمة السنوية والصراع على الجهادية العالمية»، عمان: مؤسسة فريدريش إيبيرت (مكتب عمان)، 2015

3 - Yoram Schweitzer, «The Islamic State, Two Years On: Is it Indeed on the verge of Collapse», Tel Aviv: INSS Insight No. 883. June 30, 2016

4 - Omar Ashour, «Ending Jihadism? The Transformation of Armed Islamist Movements, Carnegie, September 9, 2009. <http://carnegieendowment.org/sada/?fa=23805>

أيدولوجية محددة بقصد إضفاء الشرعية على ممارستها في ظل استجداد شروط موضوعية محددة. وبحسب منهجية الأطياف هذه، تكفّ صعوبة «الفصل» بين المجموعات الإرهابية و«المعتدلة» عن أن تكون صعوبة تقنية شكلية، وتغدو صعوبة تتعلق بماهية تلك المجموعات بأطيافها المتساكنة، وبسياسات أطراف الصراع المختلفة. وتكشف منهجية هذه الدراسة تهافت المقاربة «المذهبية» التي تنطلق في تحليلها لنشوء وتطور الحركات السلفية «الجهادية» مما تسميه «الانقسام السني - الشيعي» و«المظلومية السنية».

أولاً: المقاربة المذهبية: من «أزمة الهوية» إلى «المظلومية السنية»

لعل المقاربة الأيدولوجية القائمة على سياسة «الهويات» وأزمتهما وصراعها هي الأكثر شيوعاً في استقراء نشوء تنظيم داعش الإرهابي التكفيري، كما سائر التنظيمات «السلفية الجهادية». وتقوم هذه المقاربة على أن الأيدولوجيا، معبراً عنها في «سياسات الهوية»، أو «الأزمة السنية والصراع على الجهادية العالمية»، هي عامل حاسم، أو حتى العامل الحاسم، في تفسير نشوء وتطور داعش.

وفي حين يشير القائلون بهذه المقاربة أو المتأثرون بها إلى وجود عوامل أخرى موضوعية، سياسية واجتماعية، فإنهم يتطرقون إلى هذه العوامل عَرَضاً، في ما هم يسهون في شرح تأثير العامل المذهبي في تكوين السلفيات «الجهادية». والأنكى من ذلك أن بعضهم يميل إلى تفسير تلك العوامل الأخرى بعامل حاسم، هو الهويات المذهبية؛ وصولاً إلى ما يسمّى «المظلومية السنية».

ويحتل العامل الشخصي (دور الأفراد) الحيز الأعظم في تاريخ داعش المكتوب بحسب هذه «المقاربة المذهبية»

المسلمين. لكن في الأعوام الأخيرة خبرت هذه الجماعة تحولات داخلية ملموسة من جهة، وجرى إدراجها في

سنتي 1913 و1914 في قوائم الإرهاب

لدى عدد من الدول المختلفة

الأيدولوجيات والسياسات

(روسيا، سورية، مصر، السعودية،

البحرين، دولة الإمارات). وهكذا

كان السؤال: ما دلالة التنظيمات

الإرهابية التي تكونت في رحم هذه

الجماعة، «الدعوية التقليدية»، منذ

أربعينيات القرن الماضي (مثل «النظام

الخاص» في مصر) ثم في سبعينيات

القرن («الطليعة المقاتلة» في سورية مثلاً)؟ وأين جماعة

الإخوان- بشعارها التاريخي: «وأعدّوا»- من التطورات

الدراماتيكية التي خبرتها «السلفية الجهادية» منذ

تسعينيات القرن الماضي وصولاً إلى ولادة تنظيم داعش؟

ما الذي يصل / يفصل حلقات السلسلة السلفية الممتدة

منذ قرون: منذ ما قبل سلفية ابن تيمية في القرنين الثالث

عشر والرابع عشر إلى سلفية إبراهيم البدري (الملقب

أبو بكر البغدادي) في القرن الواحد والعشرين، وما

بينهما من سلفية محمد بن عبد الوهاب في أوائل القرن

التاسع عشر، وسلفية سيد قطب (في مصر) ومحمد سرور

زين العابدين (في سورية) في النصف الثاني من القرن

العشرين، وصولاً إلى سلفية القاعدة والنصرة وداعش في

ربع القرن الأخير؟

تعتمد هذه الدراسة منهجية ترى إلى مختلف الحركات

السلفية على أنها أطياف مختلفة ضمن اللون الواحد؛ على

أنها «درجات» في نسق واحد على غرار درجات الأطياف

في الألوان أو درجات الزلازل على مقياس ريختر. وترى

أن تمايز إحداها عن الأخرى يعود إلى انتقائها ادعاءات

تعتمد هذه

الدراسة منهجية

ترى إلى مختلف

الحركات السلفية

على أنها أطياف

مختلفة ضمن

اللون الواحد

بذكاء في أزمة الهوية للعرب السنة في العراق وسورية وخارجهما»⁷.

ثانياً: تمايز داعش المُفترَض والتباس المرجعية الأيديولوجية

ثمة ميل واضح في معظم المقاربات المذهبية في دراسة تنظيم داعش إلى تأكيد فرادة التنظيم واختلافه عن سواء من العائلة السلفية الواحدة، على حساب تشابهه معها (مع الاعتراف إجمالاً بوجود هذا التشابه، لكن مع التقليل من شأنه).

يبدو أن "الالتباس"

ليس قائماً

في مرجعية

المجموعات

السلفية

"الجهادية"، بل

في المقارنة

"المذهبية" ذاتها

الأولوية للتغيير المجتمعي تغييراً جذرياً، واستخدام «التوحش» بل والإفراط فيه لتحقيق هذا التغيير، وعدم التمييز بين الطواغيت والاستعمار الغربي (الكافر)»⁸.

كما نجد، مع تلك المقارنة أننا أمام «حالة من الاستقطاب في أوساط التيارات السلفية الجهادية في مناطق تواجدها،

وسواها، وحتى بحسب بعض التحليلات التي لا تقع في حبال هذه المقاربة⁵. لكن ما يغيب عن تلك المقاربة هو تتبع انتقال ولاءات هؤلاء الأفراد من مجموعة سلفية إلى أخرى، بما يضيء على حقيقة التخوم التي تفصل / تصل بين هذه المجموعات، ويقدم أحد الدلائل على مقولة الأطياف السلفية المتعددة ضمن اللون السلفي الواحد.

وبحسب هذه المقاربة فإن «العامل الأكثر أهمية في تفسير الصعود الراهن يتمثل بالعامل السيسولوجي، أي المجتمع السني»، أو «الأزمة السنوية الممتدة بين العراق وسورية ولبنان». وهذا العامل يفسر - بل يبرر - بحسب المقاربة المذكورة سلوك تنظيم داعش الوحشي مع الخصوم، «الذي لا يخرج عن مربع الردّ على التوحش الآخر ضد المجتمع السني». وترى هذه المقاربة أن هذه الأزمة السنوية «ناجمة من انحراف طبائع الصراع إلى سؤال «الهوية». فالسنة في البلدان الثلاثة المذكورة باتوا يشعرون مع تنامي الصراعات الداخلية والأهلية، بفراغ سياسي عربي وبحالة من الإحباط وخيبة الأمل في ظل تنامي النفوذ الإيراني في كل من العراق وسورية، وحالة الفراغ السياسي العربي، والفوضى والحروب الداخلية»⁶

وفي صياغة أخرى متأثرة بالمقاربة المذهبية، نقرأ أن «سنة كثيرين» دعموا تنظيم داعش «لأنهم نظروا إليه باعتباره الردّ الموازي الفعال ل«الهيمنة» الشيعية والعلوية في بغداد ودمشق، على التوالي، ومن خلفهما الراعي الإيراني. وقد تمكن التنظيم "في صعوده السريع ... من الاستفادة

5 - مثلاً، هيثم مناع، «خلافة داعش»، المعهد الاسكندنافي لحقوق الانسان، 2014

6 - أنظر: أبو هنية وأبو رمان، مصدر سبق ذكره، ص. 134-136

7 - جرجس، مصدر سبق ذكره، ص. 11

8 - عبد الباري عطوان، «الدولة الإسلامية: الجذور، التوحش، المستقبل»، بيروت: دار الساقى، ص. 9

9 - المصدر نفسه، ص. 10

زاجت جماعة

الإخوان المسلمين

في سورية

بين "السلفية

الجهادية"

والإسلام

الرأسمالي

الليبرالي

ما بين مؤيد ومؤمن بنموذج داعش وآخرين بنموذج القاعدة والنصرة». إذن، نحن بحسب تلك المقاربة «أمام

تيارين متباينين، بل ومتخاصمين ومتصارعين، يكفر ويخون كل منهما الآخر»: نموذج داعش، من جهة، ونموذج سائر الحركات السلفية «الجهادية» والقاعدة والنصرة، من جهة أخرى¹⁰.

وفي ما يتعلق بالاختلاف في مجال المرجعيات الأيديولوجية، نجد من يعرض بصورة مسهبة آراء من يعتبرون «الآباء المؤسسين» لأيديولوجيا السلفية الجهادية، ويتوقف عند آراء بعض هؤلاء المراجع مثل سيد قطب في كتابه «معالم على الطريق»، وكتاب أبي بكر ناجي¹¹ «إدارة التوحش» وكتاب أبي عبد الله المهاجر «مسائل من فقه الجهاد»/ «فقه الدماء»¹². كما يورد أسماء أخرى كثيرة ممن ساهموا في صوغ الأيديولوجيا السلفية «الجهادية». وذلك كله من دون أي قراءة نقدية لها، تعتبرها ادعاءات أيديولوجية ليس إلا.

كما نقرأ أن سبب اتساع الخلافات بين فرع القاعدة في سورية (جبهة النصرة) وفرعها في العراق كان يعود إلى «التباس» المرجعية الفكرية والإستراتيجية العملية: «مرجعيات الفرع العراقي تستند فقهياً إلى أبي عبد الله المهاجر، وعملياً إلى أطروحات أبي بكر الناجي». أما جبهة

النصرة فكانت تستند «نظرياً وعملياً» إلى أطروحات أبي مصعب السوري...»، في كتابه «دعوة المقاومة الإسلامية العالمية»¹³.

يبدو أن «الالتباس» ليس قائماً في مرجعية المجموعات السلفية «الجهادية»، بل في المقاربة «المذهبية» ذاتها التي تجهد في التنقيب عن اختلافات بين هذه المجموعات، ولا تتناول هذه المجموعات على أنها «أطراف» أو درجات في اللون السلفي الواحد، لكل منها «ادعاءات» أيديولوجية هدفها تبرير وجودها وترويج نفسها وتحسين موقعها التنافسي على التمويل الأجنبي وعلى الجمهور السلفي مع المجموعات الأخرى. والأهم هو أن المقاربة المذكورة لا ترى أن الاختلافات بين هذه الأطراف / الدرجات إنما تعود إلى تعدد المرجعيات الفرعية وإلى اختلاف الشروط الملموسة باختلاف الزمــــن (سنعود إلى هذه المسألة لدى تناولنا تعدد المرجعيات الفرعية أدناه).

كما تدير المقاربة «المذهبية» عمليةً مبالغاً، تصل حدّ الأسطورة، في ما يتصل بتميز تنظيم داعش وقوته وصعوده وتمدده «السريع» سنة 2014. لقد أصبح داعش الآن، بحسب هذه المقاربة «لاعباً إقليمياً عابراً للحدود... ويمتلك ترسانة عسكرية ضخمة... ويمتلك خبرة قتالية عالية وكفاءة عسكرية وجهازاً يدير المعارك على مستوى محترف، وتتوفر له مصادر للثروة...، فضلاً عن ذلك والأهم، قدرته العالية على قراءة الواقع الجيوسياسي المحلي والإقليمي والدولي...»¹⁴.

10 - أبو هنية وأبو رمان، مصدر سابق، ص. 160 وما يليها

11 - منظر سلفي مجهول الهوية ولكن كتاباته ذات تأثير واسع لدى جماعات العنف التكفيري

12 - يُعد المهاجر وكتابه المرجعية الفقهية لحركة الزرقاوي الذي يُرجح أنه تتلمذ على يد المهاجر في أفغانستان.

13 - أبو هنية وأبو رمان مصدر سابق، ص. 88-89

14 - المصدر نفسه، ص 221

تتلاعب بالوقائع التاريخية لنشوء داعش، على نحو يلفق مواقف العراقيين «الشيعة» والنظام السوري «النصيري»- كي يتسق منطقها شكلياً.

3.1 التستر على دور المجموعات التكفيرية

نكتفي هنا بالإشارة على سبيل المثال إلى دور اثنتين من هذه المجموعات كما أفصح عنه

بعض قادتها بالذات. التستر على

دور «شبكة الزرقاوي»¹⁷ لم يُعرف

عن الزرقاوي أي ورع أو تقوى في

صباه (بل العكس تماماً، بحسب

مختلف مصادر سيرته الشخصية)،

كما لم يشتهر بأي حنكة أو تجربة

عسكرية فذة، ولا بأي تبحر في الفقه

الإسلامي. وهو مبكراً، منذ بداية

الاحتلال الأمريكي للعراق، حدّد

معسكر العدو، ورسم خطة «دقيقة»

للتعامل مع هذا المعسكر. وضع

«الشيعة» على رأس قائمة الأعداء،

قبل الاحتلال الأميركي- كما جاء

في رسالته إلى بن لادن والظواهري، في شباط/ فبراير 2004¹⁸. فقد جاء في الرسالة:

«الشيعة: هؤلاء في رأينا هم مفتاح التغيير. يعني أن استهدافهم وضربهم في عمقهم الديني والسياسي والعسكري سيدفعهم إلى أن يظهروا للسنة سعارهم

عقلية المبالغة، وصولاً إلى حدّ الأسطورة، التي دمغت معظم التحليلات عندما كانت «الضربة لا تزال ساخنة» وكان المناخ السياسي-النفسي متأثراً بهول «الصدمة»، شاركت فيها تحليلات أخرى لم تغفل من تأثير هذه المقاربة. فدولة «داعش»، بحسب أحدها، «تملك بنوك عقول وأدمغة متخصصة في علوم كثيرة، إدارية وعسكرية وسياسية وإعلامية وأمنية، تضع الخطط والدراسات وتنظم العمل في مؤسساتها، حسب المعلومات التي حصلنا عليها من مصادر داخلها، ونعتقد أنها دقيقة...»¹⁵

ويكاد صعود تنظيم داعش يُدرج في مرتبة المعجزة، عندما نقرأ أن قوات الأمن العراقية تهشمت «كلوح من زجاج أمام إعصار داعش... مع أن مقاتليه كانوا بالمئات فقط، أو بضعة آلاف في الحدّ الأقصى»¹⁶. والحال، أن التنظيم لم يكن وحده ولم يكن بالمئات أو الآلاف فقط حين اجتاحت الموصل وسواها من الأراضي العراقية (وهذا ما سنفضّل فيه أدناه).

ثالثاً: تهافت المقاربة المذهبية

تعتمد المقاربة المذهبية إلى التعمية على حقيقة منشأ ما تسميه «الانقسام السني- الشيعي» و«مظلومية السنة»، ودور مختلف الأطراف الفاعلين على ضفتي الصراع في هذا الصدد. فهي تستر على دور المجموعات السلفية «الجهادية» وجماعة الإخوان المسلمين والاحتلال الأميركي في التسعير المتعمد لهذا الانقسام. وهي في المقابل

15 - عطوان، مرجع سابق، ص 228

16 - جرجس، مرجع سابق، ص 15

17 - هذه الشبكة هي تنظيم القاعدة الذي اتخذ أسماء عدة («التوحيد والجهاد» سنة 2004، «قاعدة الجهاد في بلاد الرافدين» سنة 2006)، وتطور إلى «الدولة الإسلامية في العراق»، التي شكلت النواة الأساسية في تنظيم داعش سنة 2013.

18 - نص رسالة الزرقاوي إلى بن لادن والظواهري، مترجمة إلى الانكليزية على الرابط التالي:

بالأخلاق الإسلامية» و«الالتزام بالقوانين الدولية للصراعات المسلحة»، وشكّلت لاحقاً «هيئة الدروع» ونسقت وشاركت في العديد من المبادرات للتنسيق بين الفصائل والكتائب.

زاوجت جماعة الإخوان المسلمين في سورية بين «السلفية الجهادية» والإسلام الرأسمالي الليبرالي. فقد «انتشر» كوادرات الجماعة وأعضاؤها على كل من «المجلس الوطني» و«الائتلاف الوطني» وجبهة النصرة و«هيئة دروع الثورة» و«فيلق الرحمن» و«فيلق الشام (أحد أكبر فصائل الجيش الحر)» والجبهة الإسلامية وحركة أحرار الشام و«جند الأقصى» (المحسوبة على داعش أيضاً) والحزب الوطني للعدالة والدستور (وعد)... الخ (وكان نفر من الجماعة، مثلاً، أبو مصعب السوري، القادم من «الطليعة المقاتلة» الإخوانية في ثمانينيات القرن الماضي، قد شارك في تأسيس منظمة «القاعدة»، إلى جانب الإخوان المسلمين المصريين السابقين وغيرهم).

في صدد هذا الانتشار، يقول القيادي في الجماعة، عمر مشوح، إن «شباب الإخوان لهم تواجد في كل الفصائل الثورية». وهو يضيف حرفياً في المقابلة الصحافية (18/4/2016) التي نشرها موقع الجماعة: «ليست مبالغة أن أقول إنه لو رفعت أي حجر في سورية لوجدت تحته الإخوان عملاً أو فكراً، لكن ليس من الضروري أن نعلن كل شيء نفعله...»

3.2 تحجيم دور الاحتلال الأميركي للعراق وشيطة محور المقاومة

لقد أوغل بعض أنصار المقاربة المذهبية في الغلو والشطط إلى حدّ التقليل من شأن دور الاحتلال الأميركي في عملية «إيقاظ المارد المذهبي» في بلاد الرافدين. فعلى الرغم من

ويكشفوا عن أنياب الحقد الدفين في صدورهم. إذا نجحنا في استدراجهم إلى ساحة الحرب الطائفية، سيصبح من الممكن إيقاظ السنة الغافلين حين يشعرون بالخطر الداهم والموت الماحق على أيدي هؤلاء الصابئة. وعلى الرغم من ضعفهم وفرقتهم، فإن السنة هم... الأكثر تصميمًا والأكثر ولاءً عندما يواجهون أولئك الباطنية....».

وقد سبق فعلُ الزرقاوي قوله، حيث بادرت شبكته مبكراً إلى تنفيذ تفجيرات ضد المواطنين الشيعة. فمثلاً، هاجمت في 29 آب / أغسطس 2003، مسجد الإمام علي بن أبي طالب في النجف، وقتلت 45 شخصاً، بينهم آية الله محمد باقر الحكيم، بالإضافة إلى عشرات الجرحى، في إطار استراتيجية الجماعات «الجهادية» في شن هجمات دموية على أهداف مدنية ودينية شيعية في العراق.

كما تتستر المقاربة المذهبية على دور جماعة الإخوان المسلمين في سوريا وتتجاهل لجوء تلك المجموعات إلى التخطيط والإعداد للعمل المسلح حتى قبل أن تنطلق «ثورة سلمية» في سورية، وتلقي بالمسؤولية عن «عسكرة الثورة» على عاتق النظام وبطشه بالمتظاهرين «السلميين». وعن دور جماعة الإخوان المسلمين في سورية، يكشف أحد قادة الجماعة ورئيس مكتب التخطيط والدراسات الإستراتيجية فيها ملهم الدروبي، المقيم في جدة في السعودية، أنه قدّم بناءً على طلب القيادة- في صباح يوم 13 كانون الثاني/يناير 2011، أي قبل نحو شهرين من انطلاق «الثورة» «سلمية»، ورقة من ثلاث صفحات بعنوان «مشروع ارحل بشار» الذي لخص في تسع نقاط ما يجب فعله إذا انطلقت ثورة في سورية. وبدون أن يكشف عن ماهية هذه النقاط، يضيف الدروبي: «دعمت الجماعة... العديد من الكتائب والفصائل بشرطين: «الالتزام

فداحة هذا الدور المخطط له لم يحظ في المقارنة المذكورة سوى ببعض الإشارات العابرة، وباعتباره مجرد عامل مساعد للعامل الرئيسي المسمى «مظلومية السنة».

لقد دأب «الحاكم» بول بريمر، المدير السابق ل«معهد كيسنغر وشركاه»، على تهيئة بيئة وبنية العراق للصدام المذهبي عبر جملة من «الأوامر» والقرارات خلال الفترة الحساسة التي امتدت لثلاثة أعوام، من أبرزها: تعيين أول مجلس لمحافظه الموصل بعد نحو شهر من الاحتلال على أسس مذهبية وعرقية، في خطوة أُريد لها أن تكون مثابة «بالون اختبار» ونموذجاً لبناء مؤسسات الدولة الجديدة على الأسس نفسها:

- توزيع الحقائق على هيئات «الحكم الانتقالية والمؤقتة» على أسس مذهبية وعرقية.

- وضع دستور جديد أسس للمحاصصة المذهبية والإثنية، التي هي أم «الفساد» وأبوه في عراق اليوم.

- تفكيك مؤسسات الدولة العراقية، خاصة الجيش ودوائر الخدمة المدنية، والسعي لخصخصة البنية التحتية والثروات المعدنية.

- وضع قانون جديد للأحوال المدنية، يعزز الطائفية والمذهبية.

ترى المقارنة المذهبية في رئيس الحكومة العراقية السابق نوري المالكي («الشيوعي») «شريكاً» في صعود تنظيم «داعش»¹⁹، أو أن المالكي قدّم لتنظيم القاعدة في العراق «ترخيصاً بالحياة من خلال إهماله الخدمات، والفشل في إدخال السنة في العملية الاجتماعية والسياسية، ونزع الصحوات من جداول الرواتب»²⁰. ويسهب أصحاب

هذه المقاربة في تفصيل ذلك، من دون الإشارة إلى أن حكومة المالكي إنما كانت أحد تجسيدات نظام

المحاصصة المذهبية والإثنية التي أرسى الاحتلال الأميركي قواعدها،

شهدت

السبعينيات أول

عملية «تناسل»

رئيسية للسلفيات

في القرن

المنصرم

بعد أن عمل بشكل منهجي على تحطيم الدولة والمجتمع العراقيين،

حتى قبل أن تتشكل سنة 2006 أول حكومة «محاصصة» برئاسة المالكي

وبمشاركة «سنية». وفي المقابل،

يجهد أصحاب هذه المقاربة في طمس مشاركة العراقيين «الشيعة»

في مقاومة الاحتلال (ومقاومة الفساد الداخلي وداعش لاحقاً)، من خلال مجموعة واسعة من الفصائل التي

تشارك اليوم ضمن تشكيلات الحشد الشعبي، وقد اعتقل الأميركيون أحد الكوادر العسكرية لحزب الله

(علي دقدوق) بتهمة تدريب هذه الفصائل التي حملها الأميركيون مسؤولية هجمات واسعة اشتملت على

العبوات الجانبية والقصف الصاروخي.

بالمثل، تسعى المقاربة المذهبية إلى «تجريم» النظام السوري بتهمة المساهمة في نشوء منظمة القاعدة، وإلى طمس دور

سورية في دعم مقاومة الاحتلال الأميركي في العراق (وكذلك في دعم المقاومتين اللبنانية والفلسطينية). ولعل

ذلك كان السبب الرئيسي (إلى جانب سبب آخر يتمثل في خطأ الحكومة السورية في إطلاقها سراح سجناء

المجموعات «الجهادية» في أيار/ مايو 2011) في اتهام النظام السوري بالمشاركة «في توفير مناخات القاعدة»²¹.

19 - أبو هنية وأبو رمان، مرجع سابق، ص 122-127.

20 - جرجس، مرجع سابق، ص 115.

21 - أنظر أبو هنية وأبو رمان، مرجع سابق، ص 75 وما يليها.

وخلايا نائمة، تنتشر ما بين أقصى الغرب الأفريقي وأقصى الشرق الآسيوي. أما القول ب«تسلل» مقاتلي التنظيم إلى مثل هذه البلدان²² فهو يكشف عن القصور الفاضح في تفسير «صعود» داعش.

- القصور في إدراك حقيقة الإدعاءات/ المرجعيات الأيديولوجية للمجموعات السلفية «الجهادية» المختلفة (في مرجعياتها الفرعية) المؤتلفة (في مرجعية رئيسية واحدة)، والخلط بين المرجعيات الفرعية والرئيسية.

- تجاهل «المرجعيات» السياسية الإقليمية والدولية، وهي «أم مرجعيات» تلك المجموعات، وتعلو على المرجعيات الأيديولوجية، الرئيسية منها والفرعية.

- العجز عن تفسير وجود هذا العدد الهائل من المجموعات «الجهادية» المعارضة المتعارضة، خصوصاً في سورية.

- الاعتماد المفرط لمصادر الحركات السلفية «الجهادية» بصورة غير نقدية، والإسهاب في عرضها، على أساس أنها مصادر ذات صدقية، لا مجرد ادعاءات أيديولوجية زائفة هدفها تسويق الممارسة العملية.

بعد أن قدمنا هذا العرض للمقاربة «المذهبية» الرائجة، وأظهرنا تهافت هذه المقاربة في قُصورها التحليلي وعُوارها الأكاديمي، ننتقل إلى اقتراح مقاربة أخرى مختلفة لولادة تنظيم داعش وصعوده وانحداره المتوقع. وتقوم المقاربة المقترحة في النظر إلى التنظيم في إطار التناسل التاريخي للحركات السلفية، باعتبار التنظيم أحد تدرجات اللون السلفي الواحد.

لا جدال في أن تنظيم داعش لم ينشأ من الفراغ، ولا هو مجرد نبت شيطاني في ربيع الصحراء العربية. لقد نشأ

في واقع الحال، استغلت المجموعات «الجهادية» هذا الوضع في خدمة أجندها الإرهابية الخاصة- كما كان أمر «فتح الإسلام»، على سبيل المثال. لم يرضخ النظام السوري للضغوطات الأميركية (والأوروبية، خاصة الفرنسية) ولم يوقف دعمه للمقاومة في العراق طوال أربعة أعوام (حتى سنة 2006).

لكنه بعد ذلك قام باتخاذ إجراءات لتنظيم حركة العبور إلى العراق- في إثر تطور شبكة الزرقاوي الإرهابية وإعلانها الصريح عن أن أولوية قتال «الشيعة» لديها تتقدم على قتال المحتل الأميركي.

3.3 عوار المقاربة المذهبية الأكاديمي

إلى جانب هذا التهافت للمقاربة «المذهبية» في مجالات التجاهل والطمس والتهميش والتلاعب بالوقائع التاريخية، تعاني هذه المقاربة عواراً أكاديمياً يكشف عن قصورها

في عرض المسألة موضع البحث وفي تفسير جوانب أساسية منها. وبرز هذا العوار في عدد من المناحي، نذكر منها على سبيل المثال:

- القصور في تفسير انتشار تنظيم «الدولة» داعش، خارج العراق وسورية، في معظم بلدان العالم الإسلامي حيث لا وجود ل«الانقسام السني- الشيعي» أو «ومظلومية السنة». ففي أواخر سنة 2015، كان عدد «الولايات» التابعة للتنظيم لا يقل عن عشر ولايات، فضلاً عن فروع

تزامن الحقبة

السعودية

والساداتية ساهم

في زرع البذور

الأولى لتطور

مزدوج في تناسل

السلفية سلفية

«جهادية» من

جهة، وسلفية

رأسمالية ليبرالية

من جهة أخرى

وتجزئتها، و«تداعي الأمم من كل أفق» على بلاد العرب، «كما تتداعي الأكلة على قصعتها»: الغزو الأوروبي تحت مسمى الحروب الصليبية، والغزو المغولي والغزو التركي السلجوقي ودويلات المماليك. وشهد التاريخ مرة أخرى تحولات جديدة في مرحلة التوسع الاستعماري للرأسمالية الأوروبية وتفسخ النظام الإقطاعي العثماني في بلاد الشام و ما بين الرافدين وديار عربية أخرى منذ أوائل القرن التاسع عشر.

فترات الأزمات والتحويلات الكبرى هذه شكلت سياقاً تاريخياً ملائماً لظواهر وأفكار العنف والتطرف على أنواعها: من فرقة «الخوارج» والاستبداد الأموي برمزه الحجاج بن يوسف الثقفي الذي لجأ إلى الصلب والخوذة بدلاً من إقامة الحد الشرعي (في فترة «الفتن»)، مروراً بسلفية ابن تيمية في فترة «تداعي الأمم كما تتداعي الأكلة على قصعتها»، ثم سلفية محمد بن عبد الوهاب في فترة التوسع الاستعماري والتحول من الإقطاع التقليدي إلى الرأسمالية «الحديثة» التابعة. وفي التاريخ المعاصر، ظلت هاتان السلفتان قائمتين في الواقع (في هيئة الدول السعودية المتعاقبة) كما في طور الكمون (في رحم جماعة الإخوان المسلمين بالدرجة الأولى)، وصولاً إلى تيار «السلفية الجهادية» الإرهابي التكفيري بكافة أطيافه في وقتنا الحاضر.

وتجدر الإشارة إلى أن «التوحش»، على صعيدي الفكر والممارسة، لم يكن حكراً على التاريخ العربي الإسلامي، بل إن الغرب الرأسمالي شهد أيضاً تحولات كبرى في فترات مختلفة من تطوره بما رافقها من «توحش» أكثر دموية، خصوصاً «الحروب الدينية» الدموية بين البروتستانت والكاثوليك في أوروبا في القرنين السادس عشر والسابع عشر، التي قضى فيها ما يتراوح بين خمسة ملايين وخمسة عشر مليوناً من المدنيين والجنود. كما

التنظيم وصعد إلى «دولة خلافة» عالمية في إطار تناسل السلفيات، وبحكم الشروط الملموسة المحددة التي أحاطت بنشأته وتطوره، سواء كانت الشروط بعيدة المدى (بضع قرون)، أم متوسطة المدى (بضع عقود) أم قريبة المدى (الشروط المباشرة/ «البيئة الحاضنة»)، وسواء كانت تلك الشروط أيديولوجية أم اجتماعية-اقتصادية أم سياسية.

رابعاً: تناسل السلفيات في القرن العشرين

تضرب السلفيات بجذورها عميقاً في تاريخ المجتمعات العربية الإسلامية. فقد خبرت هذه المجتمعات تحولات تاريخية كبرى، مرّت خلالها تلك المجتمعات بأزمات مستفحلة ومستعصية على الحلول، عصفت بها وأندرت بتدميرها في بعض الأحيان. ففي فترات التحويلات والأزمات، تطرح الحياة مشكلات تستعصي على الحلول الجاهزة. القديم يحتضر، لكنه لم يمت بعد. والجديد ينشأ في رحم القديم، لكنه لا يولد بعد. فتتعدد تأويلات النصوص الدينية بين مغالاة واعتدال، بل قد تتضارب هذه النصوص إلى حدّ الإيغال في الدماء.

ولعل أول أزمة واجهتها المجتمعات العربية الإسلامية تمثلت في «الفتنة الأولى» و«الفتنة الكبرى»، إبّان مرحلة التحوّل من دولة قبيلة قريش (القائمة على التجارة الوسيطة لدى الخاصة وتربية الماشية لدى العامة اقتصادياً، وعلى نظام «الشورى» سياسياً) إلى الإمبراطورية الأموية (القائمة على أساس توسيع الوساطة التجارية وعلى خراج الأراضي الواسعة الجديدة التي جرى فتحها اقتصادياً، وعلى النظام الإمبراطوري الوراثي سياسياً). كما عرف هذا التاريخ تحولات أخرى في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، مع انحطاط الدولة العباسية

محمد قطب، الذي كان غادر مصر واستقر في السعودية مواصلاً دعوة شقيقه الراحل. ويُعتبر سيد قطب من أوائل منظري فكر «السلفية الجهادية» منذ ستينيات القرن العشرين، استناداً إلى بعض توجهات جماعة الإخوان ونشأة «النظام الخاص» للجماعة. وبرز ذلك بصورة خاصة في كتابه «معالم في الطريق»، الذي بسط فيه آراءه بشأن الحاكمية والجاهلية (التكفير) والجهاد.²³

ويُنسب إلى سيد قطب أنه هو من صهر العناصر الأساسية للسلفية المعاصرة في بوتقة واحدة: «تكفيرية الخوارج، فتاوى ابن تيمية ووصفاته السياسية، سلفية رشيد رضا، مفهوم المودودي للجاهلية المعاصرة، وحركية حسن البنا السياسية». وكان من بين الذين تأثروا بأفكار سيد قطب: الإخواني المصري السابق أيمن الظواهري؛ الملياردير السعودي أسامة بن لادن؛ الإخواني الفلسطيني السابق «أبو الجهادية العالمية» عبد الله عزّام؛ وسواهم ممن قاموا بتأسيس منظمة القاعدة في ما بعد.

وعلى المستوى التنظيمي، تشكلت أولى نوى المجموعات التكفيرية و«الجهادية»، المتأثرة بالأفكار القطبية والوهابية، في رحم جماعات الإخوان المسلمين. وكان من أبرزها: «التكفير والهجرة» و«الجماعة الإسلامية» و«الجهاد» في مصر، و«الطليعة المقاتلة» في سورية. كانت تلك الجماعات المصرية قد خرجت من رحم جماعة الإخوان المصرية وانفصلت عنها، واتخذت إحداها موقفاً مناهضاً للتسوية السلمية مع الكيان الصهيوني توجّهه باغتيال أنور السادات. لكن «الطليعة المقاتلة»، التي اعتُبرت الجناح المسلح للإخوان المسلمين السوريين، انخرطت في ممارسات إرهابية مذهبية، مثلها قتل 83 تلميذاً ضابطاً

شهد تحولات مماثلة في النصف الأول من القرن العشرين، رافقتها مستويات من التوحش والدموية غير مسبوقة في تاريخ البشرية، بدءاً بالحريين العالميتين وبرز الحركات النازية والفاشية والصهيونية.

خامساً: تزواج الوهابية والقُطبية في «الحقبة السعودية»

ظلت الحركة الوهابية في شبه جزيرة العرب الممثل الرئيسي للسلفية طوال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. وفي سنة 1928، تأسست جماعة الإخوان المسلمين، عقب انهيار «الخلافة الإسلامية» في طبعتها العثمانية ويهدف «استعادة» تلك الخلافة. ثم تشكلت تدريجياً «فروع» للجماعة الأم وجماعات الإخوان في مختلف أنحاء الوطن العربي وخارجه والتي بدأ بعضها بالانحراف نحو الاتجاهات السلفية.

شهدت السبعينيات أول عملية «تناسل» رئيسية للسلفيات في القرن المنصرم، بنتيجة التزاوج بين المكوّنين السلفيين الرئيسيين آنذاك: جماعة الإخوان المسلمين، بمرجعية سيد قطب في مصر أولاً (ثم بمرجعية محمد سرور زين العابدين في سورية في الثمانينيات) والوهابية الحاكمة في السعودية في حقبة الفورة النفطية. وقد شهدت هذه الحقبة تطورات أساسية ساهمت في تناسل السلفيات «الجهادية»، على المستويين الفكري والتنظيمي، كما على المستوى الاقتصادي الاجتماعي.

على المستوى الفكري، كانت أفكار سيد قطب تلقى رواجاً واسعاً، سواء من خلال موقعه كمسؤول القسم الدعوي في الجماعة، أو من خلال مؤلفاته أو عبر شقيقه

23 - أنظر سيد قطب، «معالم في الطريق»، القاهرة وبيروت: دار الشروق، 1989، ط 13. تناول الكتاب «الجاهلية» و«الحاكمية»، ص. 10-13. فصل «الجهاد في سبيل الله»، ص. 62-91، وهو تأويل لمفهوم ابن القيم الحوزية للجهاد في الإسلام في كتابه «زاد المعاد».

إلى ازدهار جديد في نشاط جماعة الإخوان وُصف بـ«التأسيس الثاني» للجماعة. كما أدى إلى بروز جماعات سلفية جديدة في الإسكندرية وغيرها.

وهكذا، فإن تزامن الحقبة السعودية والساداتية ساهم في زرع البذور الأولى لتطور مزدوج في تناسل السلفية في مصر وفي أنحاء متفرقة من الوطن العربي: سلفية «جهادية» من جهة، وسلفية رأسمالية ليبرالية من جهة أخرى. (ستنمو هذه البذور في مطلع القرن الواحد والعشرين لتصبح جزءاً أساسياً من المشهد الذي نراه حالياً).

سادساً: السياق الراهن (-1990)

بلغت تداعيات هذه الحقبة ذروتها بدءاً بتسعينيات القرن الماضي، مع توحش الرأسمالية النيو ليبرالية المعولة بقيادة أميركا، ثم مرورها في أزمة شاملة بدءاً من سنة 2008، وانفلاتها من عقابها على غير صعيد. على الصعيد الداخلي، تعززت النزعات العنصرية ضد الملّونين والمهاجرين إجمالاً، بمن فيهم العرب والمسلمون، الذين سيجد الشباب منهم ضالّتهم في الحركات «الجهادية» (كما ستجد هذه الحركات ضالّتها بينهم، كمقاتلين «أجانب»). وعلى الصعيد الدولي، تعززت النزعات العدوانية للإمبرياليات الأميركية والأوروبية الطامحة إلى تكريس سيطرتها على النفط والاستحواذ على أسواق جديدة- بما فيها سوق الأسلحة، فكانت حروب التدخل والغزو في أفغانستان والعراق وليبيا وسورية وسواها.

. تماشيًا مع السياسات الليبرالية الجديدة، تبنّت الأنظمة التابعة (ومن بينها الأنظمة العربية) وصفات صندوق النقد الدولي في الإصلاحات الاقتصادية الهيكلية، بما انطوت عليه من خصخصة لأملاك الدولة و«تحرير» للتجارة وإلغاء لدعم السلع- ما أسفر عن تفاقم البطالة

علويًا في مدرسة المدفعية العسكرية في حلب سنة 1979. وعلى المستوى الاقتصادي الاجتماعي، في هذه الحقبة، بلغت هجرة اليد العاملة العربية إلى دول الخليج النفطية ذروتها. كان الملايين من العمال والموظفين من «محيط» «المركز» النفطي بصورة خاصة (أي، من مصر وبلاد الشام واليمن والسودان) يعملون في الدول الخليجية، خصوصاً في السعودية. ويضاف إلى هذه الملايين، من العمال المهرة وشبه المهرة والمعلمين والمهندسين والأطباء، حفنة من رجال الأعمال الصاعدين من خلال تأسيس شركات المقاولات من الباطن المرتبطة بقطاع النفط وتفرعاته، ومن خلال احتلال مراكز عالية في مثل هذه الشركات. وهذه الحفنة ستتطور مع الأيام وتتحول إلى جزء من شريحة رجال الأعمال الجدد، التي سيكون لها شأنها الاقتصادي والسياسي لدى تمكّن العولمة في انعطافة القرن. وكان هؤلاء وأولئك جميعاً يجلبون معهم إلى بلادهم الأموال والسلوك الاستهلاكي الاستعراضي المفرط، كما الأفكار السلفية الوهابية. ومن بين صفوفهم سينبثق جنودٌ وقادةٌ للحركات السلفية «الجهادية» في أكثر من بلد عربي.

تزامنت الحقبة السعودية مع عهد الرئيس أنور السادات في مصر. وما يهّمنا هنا من «الساداتية» أمران: تمثل الأول في سياسة «الانفتاح» الليبرالي الاقتصادي التي انتهجها نظام السادات، التي أطلقت العنان لشريحة جديدة من رجال الأعمال («القطط السمان»)، كما أدت إلى احتجاجات شعبية واسعة النطاق ضد هذه السياسة، بلغت ذروتها في «انتفاضة 18 و19 يناير» سنة 1977.

وتمثل الأمر الثاني في سياسة «الرئيس المؤمن» السادات القائمة على التصالح مع جماعة الإخوان المسلمين وسواها من الجماعات السلفية في مصر. وقد أدى ذلك

وازداد الدّين العام والعجز في الموازنات الحكومية- زيادة تحمّلت هذه الطبقات وزرها. ومن جهة أخرى، لم تتحقق وعود «ثورات الربيع العربي»، المغدور منها والمأزوم والمصطنع، في «العيش والحرية والكرامة والعدالة الاجتماعية». وساهم فشل هذه الثورات في تراجع ثقة الطبقات الشعبية بأمل التغيير، كما ساهم في استجرار التدخل الإمبريالي، وتعزيز شوكة الإرهاب التكفيري بديلاً من «الديمقراطية الليبرالية».

شكّل ربع القرن الماضي منعطفاً تاريخياً جديداً في تطوّر أيديولوجيا الأطياف السلفية وتناسلها، على نحو غير مسبوق. ولا تزال تداعيات هذا المنعطف مستمرة حتى يومنا الحاضر بين حدّي قطبين: الأول المتطرف ويتمثل في داعش وسائر التنظيمات الإرهابية التكفيرية، المنبثقة من تزواج الوهابية وجماعة الإخوان المسلمين²⁴ على مذهب سيد قطب ومحمد سرور زين العابدين. أما القطب الثاني، «سلفية البنسن»، فتمثله الأحزاب السلفية الرأسمالية الليبرالية المنبثقة من صفوف رجال الأعمال المتدينين.²⁵ يغدو من المناسب في باب التحليل، ومن المجدي في باب دراسة سياسات المواجهة، اعتماد مقاربة الأطياف السلفية، التي تفسّر تعدد المجموعات السلفية بعوامل محددة قابلة للقياس والتشخيص والدراسة:

والاغتراب خاصة في صفوف الخريجين الشباب، والمزيد من إفقار الطبقات الشعبية ومن المديونية العامة و«الفساد»، ونشوء شريحة من رجال الأعمال الجدد في البلد الأم و/ أو بلاد الاغتراب (تنافس خصوصاً للاستيلاء على قطاع الاتصالات وأراضي الدولة)، مع هامش «ديمقراطي» يفتح أمامها نافذة للمشاركة في الحكم.

وفي الوقت نفسه، فإن بعض القوى «الإمبريالية الوسيطة» (تركيا والكيان الصهيوني في الأساس) والوكيلة (السعودية في الأساس) تفتحت شهيتها على حصة أكبر من النفوذ السياسي و/ أو الدور الاقتصادي في المنطقة، مع غياب دور مصر التاريخي. كما انفتح الرهان أمام تغيير خريطة المنطقة. وكانت الحركات السلفية («الجهادية» والليبرالية «المعتدلة») حصان هذا الرهان، في ظل غياب أي بديل ملموس.

لا تزال المنطقة تعيش مرحلة الأزمات والتحويلات الكبرى. ومما زاد الطين بلّة أن «الأدوية» الرئيسية للأزمات انقلبت إلى داء. فمن جهة، لم تؤدّ وصفات صندوق النقد الدولي بشأن الإصلاح الاقتصادي الهيكلي إلى «تنمية مستدامة»، بل أدّت بالأحرى إلى أزمة مستدامة: انسداد أفق التنمية؛ ارتفاع معدلات البطالة خصوصاً في صفوف الخريجين الجامعيين من أبناء الطبقات الشعبية،

24 - يجب الإشارة إلى أن جماعات الإخوان المسلمين لم تنتقل بقصّها وقضيتها من مواقع السلفية التقليدية إلى الإرهاب والتكفير، أو إلى مواقع إسلام البنسن الليبرالي، بل إن بعضها حافظ على سيرته الأولى ولم يصل إلى القطيعة مع تراث الإخوان السلفي القديم فيفضل بين «الدعوة» و«السياسة» - كما فعلت حركة النهضة التونسية.

25 - ارتفعت في مطلع القرن الحالي نبرة الدعوة إلى إسلام ليبرالي من جانب كتاب ومؤتمرات ومراكز دراسات، وتردد صدى هذه الدعوة حتى في الصحافة السعودية: أنظر: محمد علي المحمود، «الإسلام الليبرالي جدلية الأصل والتأويل»، جريدة «الرياض»، 2010/4/8، ونحو خطاب إسلامي مستنير.. الإسلام الليبرالي»، «الرياض»، 2012/6/14؛ أنظر أيضاً: ندوة مركز القدس للدراسات السياسية تحت عنوان «نحو خطاب إسلامي ديمقراطي مدني» في أيار/ مايو 2006؛ الدعوة إلى «إسلام علماني ليبرالي» في كتاب فهمي جدعان «في الخلاص النهائي» الصادر سنة 2007؛ معادلة «الطبقة الوسطى الرأسمالية الليبرالية» في كتاب ولي نصر «قوى الثروة الصاعدة» الصادر سنة 2011. بيد أن هذا الصنف من السلفية يخرج عن نطاق بحثنا هذا. وللإطلاع على شيء من التفصيل عنه، أنظر مقالنا على الرابط التالي:

لننظر أولاً في التسلسل التاريخي لعملية نشوء تنظيم داعش، التسلسل الواقعي الذي تتفاداه المقاربة المذهبية لهذه العملية.

1. وضعت «شبكة الزرقاوي» من قادة القاعدة الفارين

أمام الاحتلال الأميركي لأفغانستان الأساس لنشوء فرع لمنظمة القاعدة في العراق لأول

مرة. وساهمت ظروف الاحتلال

الأميركي للعراق في تطور هذه

الشبكة إلى «الدولة الإسلامية في

العراق» بقيادة البغدادي وتحالفها

مع منظمات أخرى شبيهة، بحجة

مقاومة الاحتلال الأميركي والدفاع

عن «السنة».

استند داعش

في نشوئه

وصعوده إلى

ترسانة أيديولوجية

«فقهية» تمتد من

ابن تيمية ومحمد

بن عبد الوهاب

2. عشية «الثورة» السورية، كانت

«دولة» البغدادي في العراق تلفظ

أنفاسها الأخيرة. وكانت جماعة الإخوان المسلمين

السورية تخطط من مقراتها في بعض الدول الإقليمية

والعالمية لانتهاز الفرصة التي قد يوفرها «الربيع العربي»

لتنفيذ مشروع الجماعة المسمى «إرحل بشار»، المتقاطع

مع مشروع تلك الدول «المضيئة».

3. تمكنت «دولة» البغدادي من إيجاد موطن قدم لها

في سورية من خلال إرسال «خميرة» من رجالها على

رأسهم أسامة واحدي، الذي سيتسمى باسم أبو محمد

الجولاني، من أجل «نصرة أهل الشام». تحرص الجبهة

الجديدة على إخفاء نسبها القاعدي، كما كان الجولاني

يحرص على إخفاء وجهه وهويته، من أجل تخفيف نفور

«أهل الشام» من الحركات السلفية المتطرفة ومن جماعة

الإخوان. يستجيب لنداء «النصرة» آلاف السلفيين

«المجاهدين» العرب عبر حدود الدول المجاورة (تركيا

- الشروط العيانية المحددة لنشوء وتطور هذه المجموعات في كل مكان وزمن. أي، مستوى التطور العام) السياسي والاجتماعي الاقتصادي والثقافي) في كل ساحة من ساحات عمل تلك المجموعات.

- تعدد المرجعيات الأيديولوجية الفرعية، الذي أشرنا إليه أعلاه. وقد تعزز هذا التعدد بفعل «ثورة الاتصالات» عند منعطف القرن الأخير، التي سهلت على الشيخ السلفي تنصيب نفسه مرجعية من خلال بث فتاواه وآرائه على شبكة الإنترنت. كما يسّرت على المجموعات السلفية أمر نشر ادعاءاتها الأيديولوجية واجتذاب الأعضاء والأنصار من صفوف الشباب المغرّبين عن مجتمعاتهم (في الوطن والمهجر)، والباحثين عن أجوبة بسيطة للمعضلات المعقدة.

- استيعار التنافس بين المجموعات على النفوذ والسيطرة بهدف الاستحواذ على غنائم الحرب والموارد وعائدات التهريب والتجارة غير المشروعة، وعلى حصة كل منها من التمويل الخارجي.

وهكذا تناسلت الحركات السلفية «الجهادية»، وبلغت أعتى مراحلها- حتى الآن- في تنظيم داعش.

سابعاً: ولادة داعش وصعوده

في هذا السياق من تناسل السلفيات، نشأ تنظيم داعش سنة 2014. خرج تنظيم داعش، كما «النصرة»، من رحم «القاعدة» التي وُلدت بدورها من تزاوج السلفية الوهابية وسلفية الإخوان المسلمين على مذهب سيد قطب ومحمد سرور زين العابدين. وهذا التناسل مثابة قانون عام يحكم نشأة الجماعات السلفية، بصرف النظر عن كون ولادة الجماعة كانت طبيعية أم قيصرية أم بالانشطار الثنائي البسيط كما في تكاثر الأميبيا («خلية وانقسمت نصفين»).

6. من جهتها، تنسق جبهة النصرة مع المجموعات السلفية «الجهادية» الأخرى، في كافة معاركها خصوصاً ضد الجيش السوري. ويتتوَج التنسيق بإنشاء «غرفة عمليات جيش الفتح»، التي ضُمَّت إلى «النصرة» عددًا من الأطياف «الجهادية» الرئيسية «المعتدلة» في الشمال.

7. مثلما تتخفى «القاعدة» تحت مسمى «النصرة» منذ البداية، كذلك تتخفى جماعة الإخوان المسلمين تحت مسميات شتى الائتلافات السياسية والتشكيلات المسلحة، سعيًا للظهور في لبوس «الاعتدال»، بعيدًا عن التطرف والإرهاب. وفي المسعى نفسه، تتسمى «القاعدة»/ «النصرة» باسم جديد آخر: «فتح الشام».

8. لكن، نلاحظ في كافة هذه التطورات تقاطعًا للأطياف السلفية «الجهادية»، أيديولوجيًا وسياسيًا، يعبر دائمًا عن نفسه في تقاطع التحالفات العسكرية ضد «الصلبيين والعلمانيين والنصيريين والصفويين»: جبهة سلفية «جهادية» واحدة ذات «محاور» قتال متعددة تشغلها المجموعات المتعددة، مدعومة إقليميًا ودوليًا.

هذا التحالف بين الأطياف السلفية «الجهادية»، الذي يقدر مجموع عدد مقاتليه بعشرات الآلاف، هو الذي احتل مناطق واسعة في سورية والعراق سنة 2014، لا «بضع مئات/ آلاف» من مقاتلي داعش - بحسب القائمين بصعود داعش النيزكي السريع المفاجئ الصاعق الصارخ الساطع الخ.

والأردن ولبنان) وتنشأ نقاط ارتكاز لجبهة النصرة عند هذه الحدود. وتتعزّز هذه النقاط تدريجيًا بعناصر محلية من الإخوان المسلمين بصورة رئيسية. وسرعان ما تصبح جبهة النصرة أكبر قوة مسلحة للمعارضة في سورية.

4. يعلن البغدادي عن قيام «الدولة الإسلامية في العراق والشام» من خلال توحيد «النصرة» مع «دولته» العراقية، فيرفض ذلك مبعوثه إلى سورية أي الجولاني. فينطلق داعش ويسيطر على معظم الأراضي الواقعة تحت سيطرة النصرة والمجموعات المسلحة الأخرى من خلال الاشتباكات، والمبايعات والانشقاقات في أكثر من منطقة²⁶؛ وانضمام عدد من قادة «النصرة» مثل طه صبحي فلاحه المكنى أبو محمد العدناني وخلفه الدياب الحلوس وفواز محمد الحسن العلي المكنى أبو علي الشرعي وغيرهم، بالإضافة إلى آلاف المقاتلين في صفوفها و صفوف المجموعات الأخرى (كالجيش الحر وغيره) إلى التنظيم.

5. بعد إقامة قاعدة له في سورية، خاصة في البادية والمنطقة الشمالية الشرقية، قام داعش باحتلال الأنبار والموصل وسواهما، مستندًا إلى تحالف عريض أنشأه في العراق، يضم القوى السلفية «الجهادية» الرئيسية («جيش المجاهدين» و«الجيش الإسلامي» و«أنصار السنة» و«حماس العراق» وغيرها)، علاوة على ضباط وجنود من الجيش والشرطة العراقيين السابقين (في إطار «جيش الطريقة النقشبندية» بقيادة عزة الدوري)، وأعضاء سابقين في «الصحوات» العشائرية، ناهيك ب«التواطؤ» من جانب قطعات كاملة من الجيش الجديد الذي بناه المحتل الأميركي.

26 - مثلاً، المبايعات في البوكمال الحدودية التي تربط البادية السورية بالأنبار العراقية، ومبايعات كتائب اليرموك وبيت المقدس وأبو محمد التلاوي في الجنوب السوري، ومبايعات «أمير النصرة» في منطقة نخيم اليرموك لتنظيم داعش.

مدعومة بتحالف إقليمي دولي غير مسبوق، في إسقاط النظام السوري.

تبع ولادة «دولة خلافة» داعش في سورية والعراق، على النحو الذي بينا أعلاه، مبايعات للتنظيم ولـ«الخلافة» الجديد، من جانب تنظيمات أو «ولايات» قائمة أصلاً تابعة لمنظمة القاعدة (وبعض التنظيمات انشق عن الإخوان المسلمين). ففي أوائل سنة 2015، بلغ عدد المجموعات السلفية الإرهابية التي بايعت داعش ما لا يقل عن أربعة عشر مجموعة تنتشر في مختلف أنحاء العالم.²⁷

الخاتمة:

وهذا ما يعوق تحفيف المنابع الاجتماعية الاقتصادية والأيدولوجية للإرهاب التكفيري، خصوصاً في ظل غياب بديل ملموس.

- مساعي «النخب السنية»، السياسية والثقافية والإعلامية، العربية (لاسيما العراقية والسورية) في تليفيق «مظلومية سنية». فهذه المساعي تبرر الإرهاب التكفيري، وتقدّم مجموعات على أنها جيش السنة، القادر وحده على الدفاع عن أهل السنة في مواجهة خطر «الرافضة»، باعتبارهم عدو أول يتقدم على «الغرب الكافر» والكيان الصهيوني.

- العجز عن تقديم خطاب عقلاي يتنكّب مهمة التصدي للمنظومة الأيدولوجية السلفية من خارجها، وإسناد هذه المهمة بالأحرى إلى مؤسسات بلاط رسمية (وزارات

لقد استند داعش في نشوئه وصعوده إلى ترسانة أيديولوجية «فقهية» تمتد من ابن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب، إلى سيد قطب ومحمد سرور زين العابدين، ولا تنتهي بعشرات الشيوخ المنتشرين في مختلف أرجاء العالم. كما استند إلى تراث «جهادي»، لكنه استند أيضاً، وبصورة رئيسية، إلى شروط الأزمة العامة المستحكمة السالفة الذكر التي تجتازها الأنظمة العربية (وسواها)، وإلى الشروط المستجدة بحكم غياب قائد القاعدة الملياردير أسامة بن لادن، وإخفاق «ثورات الربيع العربي»، وفشل جبهة النصرة وسائر الفصائل «الجهادية»،

يبدو، في المدى المنظور، أن تنظيم «الدولة» داعش على وشك فقدان الجغرافيا التي سيطر عليها في «لحظة نادرة» من الصعب أن تتكرر. أيّاً يكن الأمر، أثبتت التجربة الواقعية أن تنظيم داعش، شأنه شأن سائر المجموعات السلفية «الجهادية»، قادر على الهدم والتقتيل، لكنه عاجز عن البناء والإحياء. فقد «انتصر» التنظيم «بالرعب مسيرة شهر»، لكن النظام الذي أقامه في ما بعد لـ«دولة الخلافة» ظل يفتقد إلى أدنى مقومات «النموذج المثال» على مختلف الأصعدة. لكن، ثمة معضلات إشكالية لا تزال قائمة في ما يتعلق بـ«تحفيف منابع الإرهاب» في المنطقة والعالم، لعل أبرزها:

- استمرار مرحلة التحوّل و«الأزمة العامة»، التي جرى في سياقها تناسل السلفيات «الجهادية»، وصولاً إلى داعش.

27 - بوكو حرام في نيجيريا، أنصار بيت المقدس في مصر، جماعة أبو سيف وحركة مقاتلي بانجيسيمورو الإسلاميين في الفلبين، أنصار الإسلام في العراق، شبكة مجاهدي شرق إندونيسيا، أنصار الشريعة في كل من ليبيا وتونس، جند الخلافة في الجزائر، كتبية عقبة بن نافع في تونس، جماعة الاعتصام بالكتاب والسنة السلفية المنشقة عن الإخوان المسلمين في السودان، جماعة خراسان، جماعة تحريك الخلافة في باكستان، الحركة الإسلامية في أوزبكستان.

القرن الأخير. كما أن بعض شظاياها الأخرى قد يتناسل مجموعات تنحو نحو مزيد من التطرف والتوحش (كما جرت العادة التاريخية)، وقد تستفيد هذه المجموعات من الشروخ المذهبية والطائفية والإثنية التي أحدثتها الجماعات السلفية الإرهابية في المجتمعات العربية.

وعلاوة على ذلك، من المرجح أن تستفيد هذه المجموعات، مرة أخرى، من استمرار ادعاءات صعوبة «الفصل» بين الإرهاب و«الاعتدال»، ما يبقي على «تقسيم العمل» القائم حالياً: المجموعات الإرهابية قوة عسكرية ضاربة لشقيقاتها «المعتدلة»، في حين تكسو المجموعات «المعتدلة» الإرهاب العاري بالغلالة السياسية والدبلوماسية الضرورية.

الحلقة التي تمثلها «دولة» داعش في السلسلة السلفية الإرهابية على وشك الانكسار، لكن كسر السلسلة نفسها يحتاج إلى مطرقة «الكتلة التاريخية» الشعبية. ولعل البداية تكون في وضع استراتيجيا بديلة للتغيير الجذري الشامل، تنطلق من أن «لا نهضة بدون مقاومة، ولا مقاومة بدون نهضة»... وهذا بحث آخر.

أوقاف وإفتاء وثقافة وتعليم وإعلام) فاقدة الصدقية من جهة، وإلى صفات «خبراء» مفروضة بشروط «المعاهدات السلمية» و«مكافحة الإرهاب» لتغيير المناهج المدرسية بصورة تعسفية، من جهة أخرى.

من المتوقع، أن تستمر السلفية «الجهادية» على مستوى منخفض من النشاط الإرهابي المعهود سابقاً (العمليات الانتحارية بالسيارات والأحزمة الناسفة). ومن المرجح أن يتقلص تواتر هذه العمليات الإرهابية بفعل خسارة الجغرافيا، بما توفره من ملاذات آمنة للإرهابيين وللتحشيد والتدريب وتصنيع المتفجرات وانطلاق منفذي تلك العمليات. وأغلب الظن أن تضطر المجموعات الإرهابية إلى العودة إلى الصيغة اللامركزية في التنفيذ التي كانت منظمة القاعدة تتخذها.

لكن، في المقابل، قد تلجأ المنظمات اللامركزية الوليدة و«الحلالي النائمة» و«الذئاب المنفردة» إلى التركيز على عمليات الاغتيال السياسي بصورة خاصة. وقد يلجأ بعض شظاياها الناجية إلى إجراء «مراجعات فكرية»، غالباً ما كانت جزءاً من تاريخ السلفية «الجهادية» في ربع